الخصائص
اللغوية والأسلوبية

مقدمة:

يقول تعالى: " أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا " (سورة النساء:٨٢). إن التناسق المطلق الشامل الكاملَ هو الظاهرة التي لا يخطئها من يتدبر هذا القرآن أبداً. ومستوياتها ومجالاتها مما تختلف العقول والأجيال في إدراك مداها، ولكن كل عقل وكل جيل يجد منها – بحسب قدرته وثقافته وتجربته وتقواه – ما يملك إدراكه، في محيط يتكيّف بمدى القدرة والثقافة والتجربة والتقوى .. ومن ثمّ فإن كل فرد، وكل جيل، مخاطب بهذه الآية، ومستطيع – عند التدبر وفق منهج مستقيم – أن يدرك من هذه الظاهرة – ظاهرة عدم الاختلاف، أو ظاهرة التناسق ما تهيّئه له قدرته وثقافته وتجربته وتقواه..

تتجلّى هذه الظاهرة – ظاهرة عدم الاختلاف " ابتداءً في التعبير القرآني من ناحية الأداء وطرائقه الفنية .. ففي كلام البشر تبدو القمم والسفوح، التوفيق والتعثّر، القوّة والضعف، التحليق والهبوط.. إلى آخر الظواهر التي تتجلّى معها سمات البشر، وأخصّها سمة " التغيّر " أي الاختلاف المستمر الدائم من حال إلى حال، يبدو ذلك في كلام البشر، واضحاً عندما نستعرض أعمال الأديب الواحد، أو المفكر الواحد، أو الفنان الواحد، أو أي كان في صناعته، التي يبدو فيها الوسم البشري واضحاً .. وهو التغيّر والاختلاف "[1].. والحقيقة أن النقد الحديث يقول إن " العمل الفني يطمح إلى الكمال، أي أنه في صورته المثالية كامل – ولكنه لا يرقى إلى هذه الصورة المثالية أبداً، فهو مرتبط بنقصان البشر، وما هو في الحقيقة إلا سجل مجد لمشاعر وأفكار أبعد ما تكون عن الكمال شكلاً ومضموناً، ويقول العماد الأصفهاني: " لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غُيّر هذا لكان أحسن ولو زِيد كذا لكان يُستحسن، ولو قُدّم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل . وهذا من

أعظم العِبَر، وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جملة البشر" وحتى عندما يصل العمل إلى " الصورة النهائية" فإن ذلك لا يكون إيذاناً بالكمال أبداً، فالصورة المكتملة ليست كاملة لأنها تستند إلى معايير لا تفتأ تختلف من مكان إلى مكان ومن عصر إلى عصر .. ومن جمهور إلى جمهور في نفس الزمان والمكان" [٣].

هذه الظاهرة واضح كل الوضوح أن عكسها وهو الثبات، والتناسق، هو الظاهرة الملحوظة في القرآن – ونحن نتحدث فقط عن ناحية التعبير اللفظي والأداء الأسلوبي – " فهناك مستوى واحد في هذا الكتاب المعجز – تختلف ألوانه باختلاف الموضوعات التي يتناولها – ولكن مستواه وأفقه، والكمال في الأداء بلا تغير ولا اختلاف من مستوى إلى مستوى – كما هو الحال في كل ما يصنع الإنسان – إنه يحمل طابع الصفة الإلهية ويدل علي الصانع، يدل علي الموجود الذي لا يتغير من حال إلى حال، ولا تتوالى عليه الأحوال " [٣].

وإذا تأمّلنا القصة القرآنية والأسلوب الذي قُدّمت به، وماله من تأثير نفسي وفني، اتّضح وجه تسميتها " بالقصة " لا استنادا إلى مدلولها اللغوي فقط، باعتبار أن أصل الاشتقاق للفظ " قصة " يلتقي في المعنى مع المدلول الذي انبنى عليه أصل التسمية القرآنية، وهو: الإعلام بالنبأ " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ " (سورة الكهف:١٣)، أو تتبّع الأثر وتقصيّه: " وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ " (سورة القصص:١١)، بل واعتماداً علي ما في عرضها من طرق فنية، " رغم أن شروط القصة بمعناها الاصطلاحي لا تنطبق عليها غالباً، لأنها إلى الأقصوصة أقرب، وذلك لقصرها، واقتصار القرآن في أكثر الأحيان علي ذكر حلقة منها أو أكثر وعدم استيفائها كل عناصر القصة مجتمعة، من حوار وأشخاص وزمان ومكان وعقدة، كما شاع ذلك في معظم القصص الفني "[٤]. فالقصة القرآنية لا يقصد بها العمل الفني المجرد، بل هي مزيج من العمل الفني والعلمي والديني، كما هو شأن البيان القرآني جميعه، ومعني ذلك أن من يطلب فيها أحد تلك المقاصد لاشك أنه واجده فيها علي أرقى ما يمكن أن يصل إليه الكمال في العمل الأدبي، كما أشار البيان القرآني نفسه إلى ذلك في قوله تعالى: " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ " (سورة

يوسف: ٣) " فالقرآن لم يحدّد وجه الأحسنيّة .. أهو أحسن القصص بياناً وأسلوباً، أم أحسنه صدقاً فنياً، أم أحسنه صدقاً واقعياً، أم أحسنه عرضاً لوقائع التاريخ القديم، أم أحسنه وصولاً إلى متلقيه، أم أحسنه قياماً علي الحقائق ونأياً عن الخيال ؟ هو أحسن القصص في كل ذلك وغير ذلك كما قال عنه منزّله وموحيه جلّ وعلا "[٥] ... وسنحاول فيما يلي أن نكشف عما نوفّق إليه من جوانب تلك الأحسنيّة في الخصائص اللغوية والأسلوبية.

أولاً: الخصائص اللغوية:

" القرآن هو ضمير الحياة العربية، وهو من اللغة كالروح الإلهية التي تستقر في مواهب الإنسان فتضمن لآثاره الخلود، ثم لا يدل عليها حين التعرّف إلا بصفات كل نفس لمواقع تلك الآثار منها، كأنّ هذه الروح تحاول أن تفصح عن معاني النبوغ الفني في آثارها الخالدة، فلا تجد أقرب إلى غرضها من أن تهيّج الإحساس بها في كل نفس، فيجزئ ذلك في البيان عنها، لأن الإحساس إنما هو اللغة النفسية الكاملة" [٦].

والقصص القرآني باب من أبواب البيان القرآني العظيم .. ففيه من إعجاز القرآن ما في سائر أبوابه.. ونحن إنما نبحث الإعجاز اللغوي في القصص القرآني، نبحث ما أنفرد به في نفسه علي وجه الإعجاز، لا من جهة ما يشركه فيه غيره علي أي وجه من الوجوه، وبذلك يتركز بحثنا عند الخصائص اللغوية في القصص القرآني، من ناحية اللفظ والمعني.

" ومن أظهر الفروق بين أنواع الخصائص اللغوية في القصص القرآني، وبين هذه الأنواع في كلام الأدباء، أن نظم القصص القرآني يقتضي كل ما فيه منها اقتضاءً طبيعياً بحيث يُبني هو عليها لأنها في أصل تركيبه، ولا تُبني هي عليه، فليس فيه من المذاهب الكلامية التي بُنيت عليها علوم البلاغة..

فالصور البلاغية في الإبداع القصصي القرآني، إنما هي وجه من نظم حروفه، بخلاف ما نجده في كلام الأدباء، فهذه الصور تصنع لموضعها وتبني عليه فربما

وفّت وربما أخلفت، ولو هي رفعت من نظم قصصه ثم نزل غيرها في مكانها لرأينا النظم نفسه غير مختلف، وندرك بذلك مزية عظيمة في توازن حروفه، وائتلاف مخارجها وتناسب أصواتها، ونحو هذا مما هو أصل الفصاحة، ومما لا تُغني فيه استعارة ولا مجاز ولا كناية ولا غيرها، لأنه وجه من تأليف الحروف ونسق اللفظ فيها ؛ وأنواع البلاغة فيه إنما هي من وجوه التأليف بين معاني الكلمات.. فالحرف الواحد في القصة القرآنية معجز في موضعه، لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية و لآيات الكثيرة، وهذا هو السرّ في إعجاز جملته القصصية إعجازاً أبدياً، فهو أمر فوق الطبيعة الإنسانية"[٧].

وبذلك يتضح لنا أن أهم الخصائص اللغوية في القصص تدور حول جهات ثلاث: في الحروف، والكلمات والجمل:

الحروف وأصواتها:

لما قُرئ القرآن علي العرب، رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله، ألحاناً لغوية رائعة، كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها[٨]، فلم يفتهم هذا المعني، وإنه أمر لا قِبَلَ لهم به، وكان ذلك أبيَن في عجزهم، حتى أن من عارضه منهم " كمُسيلِمة "، جَنَحَ في خرافاته إلى ما حسِبه نظماً موسيقياً أو باباً منه، وطوي عما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البياني، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولي للنفس العربية، وإنما هي في أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها، وليس يتفق ذلك في شيء من كلام العرب إلا أن يكون وزناً من الشعر أو السجع..

وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت، بما يخرجه فيه مداً أو غنّة أو ليناً، أو شدّة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه علي مقادير تناسب ما في النفس من أصولها، ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع ؛ أو الإطناب والبسط، بمقدار ما يكسبه من الحدّة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ؛ وحسبنا بهذا

اعتباراً في إعجاز النظم الموسيقا في القرآن وقصصه، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر، والشدة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، والتفشي والتكرير، ونحو ذلك مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقا...

وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقا، وهي متّفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقا نفسها، أو بالمدّ، وهو كذلك طبيعي في القرآن [٩]، فإن لم تنته بواحدة من هذه، كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه، وعلي أن ذلك لا يكون أكثر ما نجد إلا في الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرف قوي يستتبع القلقلة أو الصفير أو نحوهما مما هو ضروب أخري من النظم الموسيقا[١٠].

وبتطبيق هذا النظم الموسيقا العجيب علي سورة " مريم "، الذي يستغرق القصص نحو ثلثيها، نحسّ أن للصورة إيقاعاً موسيقياً خاصاً . فحتى جرس ألفاظها وفواصلها فيه رخاء وفيه عمق: " رضياً . سرياً . حفياً. نجياً، فأما المواضع التي تقتضي الشد والعنف، فتجئ فيها الفاصلة مشددة دالاً في الغالب: مدّاً . ضدّا . إدّا. هدّاً، أو زايا: عزّاً، أزّاً . وتنوّع الإيقاع الموسيقا والفاصلة بتنوّع الجو والموضوع يبدو جلياً في هذه السورة . فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيى، فتسير الفاصلة هكذا:

" ذكر رحمت ربك عبده زكريا . إذ نادي ربه نداء خفياً... الخ"[١١] وتليها قصة مريم وعيسي فتسير الفاصلة علي النظام نفسه:

" واذكر في الكتب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً. فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ... إلخ " [١٢] إلى أن ينتهي القصص، ويجئ التعقيب، لتقرير حقيقة " عيسي بن مريم " وللفصل في قضية

نـبوته، فيخـتلف نظـام الفواصـل .. فتطول الفاصلة، وتنتهي بحرف الميم أو النون المستقر الساكن عند الوقف لا بالياء الممدودة الرخيّة علي النحو التالي:

" ذلك عيسي ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحنه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون .. إلخ" [١٣].

وهكذا يتغيّر نظام الفاصلة فتطول، وتصبح بحرف النون أو بحرف الميم وقبلهما مـدّ طويل. وكأنما هو في هذه الآيات الأخيرة يصدر حكماً بعد نهاية القصة، مستمداً منها. ولهجة الحكم تقتضي أسلوبا موسيقياً غير أسلوب الاستعراض وتقتضي إيقاعاً قوياً رصيناً، بدل إيقاع القصة الرخيّ المسترسل، وكأنما لهذا السبب كان التغيير..

وبمجـرد الانـتهاء مـن إصـدار هذا الحكم وإلقاء ذلك التقرير وعاد السياق إلى القصص عادت الفاصلة الرخيّة المديدة:

" واذكـر في الكـتب إبـراهيم إنـه كان صديقاً نبياً. إذ قال لأبيه يابت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً.. إلخ "[١٤].

حتـى إذا جـاء ذكـر المكذبـين ومـا ينتظـرهم مـن عـذاب وانتقام، تغيّر الإيقاع الموسـيقا، وجـرس الفاصلة: " قل: من كان في الضللة فليمدد له الرحمن مداً . حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب، وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً .. إلخ " [١٥] وفي موضع الاستنكار يشتد الجرس والنغم بتشديد الدال:

" وقالـوا: اتخـذ الـرحمن ولـداً . لقـد جئتم شيئاً إداً، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ... الخ " [١٦].

" وهكـذا يـسير الإيقـاع الموسيقا في السورة وفق المعني والجو، ويشارك في إبقاء الظل الذي يتناسق مع المعني في ثنايا السورة، وفق انتقالات السياق من جوٍ إلى جو، ومن معنى إلى معنى"[١٧].

" إن الفاصـلة القـرآنية تـرد وهـي تحمل شحنتين في آن واحد: شحنة من الوقع الموسيقا، وشحنة من المعنى المتمّم للآية . فالمعنى هو الذي يتحكم في نوع الفاصلة،

ثم يأتي النغم الموسيقا متمّماً للروعة التي يتميّز بها أسلوب القرآن"[١١٨].

" وهذه هي طريقة الاستهداء الصوتي في اللغة، وأثرها طبيعي في كل نفس، فهي تشبه في القرآن أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه وكل نفس لا تفهمه، ثم لا يجد من النفوس على أي حال إلا الإقرار والاستجابة ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضرباً من الكلام البليغ الذي يطمع فيه أو في أكثره، ولما وجد فيه أثر يتعدّى أهل هذه اللغة العربية إلى اللغات الأخرى، ولكنه انفرد بهذا الوجه للعجز، فتألّقت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره أو أقحم معه حرف آخر، لكان ذلك خللاً بيناً أو ضعفاً ظاهراً في نسق الوزن وجرس النغمة، وفي حسّ السمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض"[١١٩]

ومثال ذلك ما نجده في قصة إبراهيم عليه السلام: " قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ " (سورة الشعراء:٧٥-٨٢).

فقد خطفت ياء المتكلم في " يهدين ويسقين ويشفين ويحيين "محافظة على حرف الفاصلة مع " تعبدون، والأقدمون، والدين ..." .

ومثله في قصة موسى والعبد الصالح: قال ذلك ما كنا نبغ . فارتدا على ءآثارهما قصصاً" (سورة الكهف:٦٤)، فلو مددنا ياء نبغي كما هو القياس لا ختل الوزن نوعاً من الاختلال .. وأحياناً لا يكون هناك عدول عن صيغة قياسية، ومع ذلك نلحظ الموسيقا الكامنة في التركيب، والتي تختل لو غيرنا نظامه مثل ما جاء في قصة زكريا: " ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا" (سورة مريم:٢-٤) فلو حاولنا مثلاً أن نغيّر فقط وضع كلمة " مني" فنجعلها سابقة لكلمة " العظم ":

لأحسسنا بما يشبه الكسر في الوزن الموسيقا، ذلك أنها تتوازن مع " إني" في صدر الآية هكذا: قال رب إني وهن العظم مني"...

" وهكذا نلحظ نوعاً من الموسيقا الداخلية، يكمن في نسيج اللفظة المفردة، وتركيب الجملة الواحدة، وهو يُدرك بحاسة خفيّة، وهبة لدنيّة" [٢٠].

ثانياً: الكلمات وحروفها:

الكلمة في الحقيقة الوضعية إنما هي صوت النفس، وصوت العقل، وصوت الحس، إما صوت النفس: فهو الصوت الموسيقا الذي يكون من تأليف النغم بالحروف ومخارجها وحركاتها ومواقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه علي طريقة متساوقة وعلي نضد متساو، بحيث تكون الكلمة كأنها خطوة للمعني في سبيله إلى النفس، إن وقف عندها هذا المعني قُطِع به...

إما صوت العقل: فهو الصوت المعنوي الذي يكون من لطائف التركيب في جملة الكلام، ومن الوجوه البيانية التي يداور بها المعني، لا يخطئ طريق النفس من أي الجهات انتحي بها.

أما صوت الحس: فهو أبلغهن شأنا، لا يكون إلا من دقة التصور المعنوي، والإبداع في تلوين الخطاب، ومجاذبة النفس مرة وموادعتها مرة، بما يسوقه إليها من طرائف المعاني..

وإذا ذهبنا نبحث في أصول البلاغة الإنسانية عن حقيقة نفسية ثابتة قد اطردت في اللغات جميعاً، وهي في كل لغة تُعدّ أصلاً في بلاغتها، لما أصبنا غير هذه الحقيقة التي تظهر في شيء من الكلام ظهورها في القرآن وهي:

ـ الاقتصاد في التأثير علي الحسّ النفسي:

ونلاحظ ذلك في كلمات القصص القرآني، فهي لا تُسْرف على النفس، ولا تستفرغ مجهودها، بل هي مقتصدة في كل أنواع التأثير عليها، فلا تضيق به ولا تنفر منه " [٢١]، ولذلك نجد الكلمات في القصص القرآني، تتميز بمميزات منها:

١ـ جمال وقعها في السمع (٢٢):

ويـرجع ذلك إلى دقة القرآن في استخدامه للألفاظ وحسن اختيارها في مواقعها. فقـد جـاء عـلي لسان السحرة الذين آمنوا بموسى على الرغم مما أَوْعدهم به فرعون من عقابٍ شديد: " رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا"(سورة الأعراف: ١٢٦).

فـإن مـا يثيره لفظ " أفرغ " وما يوحي به من لين ورفق وطمأنينة يحسها من هدأ جـسمه بما يلقي عليه . وهذه الراحة تشبهها تلك الراحة النفسية التي ينالها من منح الـصبر الجميل، فإذا جاء إلى العذاب استخدم لفظ " صبّ " فقال: " فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ " (سورة الفجر: ١٣). وهي مؤذنة بالشدة والقوة معاً...

" وهكـذا فـإن للألفاظ أطيافاً وظلالاً وأصداء في النفس، كما أن لجرسها إيقاعاً في الأذن.. والكلـمات في التعبير، كالألوان في الرسوم، والأنغام في الموسيقا، ويكفي أن نقـرأ مـا ورد في قـصة " زكـريا " مـن دعـاء، وتميّـزه بإيقاعـه الغنائي ؛ ودعاء " إبراهيم " وأصوات ألفاظه المتقطعة المتهدجة، ودعاء " نوح " المجلجل المديد، فهي كلها في سموها وحرارتها كأنها أناشيد السماء"[٢٣] .

٢ـ " اتساقها الكامل مع المعنى " (٢٤):

أ – العلاقة بين الآية وفكرتها:

حـيث نلحـظ الانـسجام بـين الفكـرة التـي تحملهـا الآيـة، والخاتمة التي تنتهي بالفاصـلة، ولنقرأ قوله تعالى مثلاً على لسان عيسي عليه السلام عندما يسأله ربّه يوم القـيامة: " أَأَنـتَ قُلـتَ لِلـنَّاسِ اتَّخِـذُونِي وَأُمِّـيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ "، فيجيب فيما يجـيب: " إِن تُعَـذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " (سورة المائدة: ١١٦-١١٨).

فقـد نتـساءل عندما نقرأ هذه الآية: لماذا لم تنته بقوله مثلاً: " وإن تغفر لهم فإنك أنـت الغفـور الـرحيم "، مـع أن الـسياق يُوحـي بالغفـران؟ ولكننا إذا أمعنّا النظر وجـدنا أن الـذي اسـتحقّ العذاب لا يستطيع أن يغفر له إلا من كانت سلطته أعلي

السلطات، وقوته أعظم القوي، وعزته فوق كل عزة، ومن كان كذلك وجب أن يكون متصفاً بالحكمة التي يساندها العقل والمنطق السليم، وينأى عنها الحمق والتسرع والظلم والتهوّر، وإذا جاءت الفاصلة بالعزة مقترنة بالحكمة، فلأن القادر علي العقاب عزيز دائماً ... ولكن ليس كل عزيز عادلاً. فكم من ملوك وحكام ومن بينهم سلطان علي الناس في هذه الدنيا ملكوا العزة، إلا أنهم فقدوا الحكمة التي يسندها العدل والعقل والسلوك المستقيم، ولذلك نجد أن ربط الحكمة بالعزة تعبير رائع، وتصوير جامع، وبيان قاطع لخالق عزيز حكيم "[٢٥].

والحق أنه ما انتهت آية إلا بفاصلة ملائمة كل الملائمة لمعناها، مستقرة في مكانها، غير نافرة ولا قلقة .

ب- " ألفاظ يظن بها الترادف وليست منه "[٢٦]:

" أسلوب القرآن يتألق في اختيار ألفاظه ووضعها في الأماكن اللائقة بها، بحيث تكون مستقرة في مكانها مطمئنة في قرارها، ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها يستخدم كل حيث يؤدي معناه في دقة فائقة، فكأنها تؤمن بأن هذا المكان كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها، وأن كلمة أخري لا تستطيع توفيق المعني الذي وفق به أختها، فكل لفظة من إفراد القرآن وضعت لتؤدي نصيبها من المعني أقوي أداء . ولذلك لا نجد فيه ترادفاً، بل كل كلمة تحمل معنى جديداً، ولها في النفس إيحاءات خاصة، ولذا دعا القرآن إلى عدم استخدام لفظ مكان آخر " [٢٧]: " قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا" (سورة الحجرات:١٤) .ولذلك لا يجوز القول بوقوع الترادف في لغة القرآن لأنّه كلام فصّلت عباراته وأحكمت ألفاظه ووضع كل حرف فيه بإتقان بديع، ولذا وجب علينا في دراستنا للغة القصص القرآني أن نتتبع ألفاظه لنبرز ما بينها من فروق دقيقة ودلالات مميزة:

- كل ... وأجمع: في قصة الاحتفاء بميلاد آدم ودعوة الملائكة إلى السجود له:

" فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ" (سورة الحجر:٣٠، سورة ص:٧٣).

وقال الخليل وسيبويه: إن مجيئها في الآية علي هذا النحو لإفادة التأكيد بعد التأكيد . وهذا الكلام صحيح من وجهة النظر النحوية، ولكن هذا لا يعني أنهما مترادفان في التأكيد فيقال فيهما " توكيد بعد توكيد " وإنما لكل منهما تأكيده الخاص وجهته المنفردة .. فلفظ " كل " في صوره المختلفة يدل علي الإحاطة والشمول، أما لفظ " أجمع " فيدل علي الضم والاجتماع . فيكون الأول تأكيداً لمعني الوحدة في الفاعل . والثاني تأكيداً لمعني الوحدة في الفعل .. ويكون ذكرهما معاً في الآية الكريمة لإحكام البيان في صفة السجود وهيئته ليدل بالأول (كلهم) علي عموم الامتثال، وبالثاني (أجمعون) علي سرعة الاستجابة ... وبهذا يكون التأكيد بـ (كل) لإفادة أن العدد العديد صار فرداً واحداً في امتثال الفعل ويكون التأكيد بـ (أجمع) لإفادة أن العدد العديد صار فرداً واحداً في حركة الفعل ..

وقد سئل " المبرد " عن اجتماع اللفظين في الآية فقال: لو قال: " فسجد الملائكة " احتمل أن يكون سجد بعضهم . فلما قال (كلهم) زال هذا الاحتمال فظهر أنهم بأسرهم سجدوا . ثم بعد ذلك بقي احتمال آخر وهو أنهم سجدوا دفعة واحدة أو سجد كلهم وأحد منهم في وقت آخر . فلما قال (أجمعون) ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة [٢٨].

وتتجلي هذه الدقة أيضاً في قوله تعالى في قصة لوط عليه السلام:

" إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ " (سورة الحجر: ٥٩).

فقد ذكر لفظ أجمعين دون أن يأتي معه بلفظ كل . لأن المقام مقام إحاطة وشمول في هيئة الفعل وحركة الزمن لأن النجاة تحققت للناجين من آله في لحظة واحدة، هي نفس اللحظة التي تحقق فيها الهلاك بالصيحة علي المجرمين من قومه . ولم يقل (كلهم) لأن النجاة لم تتحقق لكل فرد من الآل بدليل قوله (إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ) (سورة الحجر: ٦٠). ولو قال (إنا لمنجوهم كلهم) لكان ذلك منافياً للاستثناء [٢٩].

ـ الزوج ... والبعل

فالـزوج يـدل عـلي ربـاط الثنائـية بين قرينين فإذا انفك هذا الرباط انتفت صفة الزوجية فيهما .. وأما لفظ " البعل " فيفيد معني الفحولة في المعاشرة الزوجية..

وفي إطـار هـذه الفـروق الدقـيقة جاء اللفظان في مواضعهما من القرآن الكريم، ويخـصّنا هـنا ما جاء في قصة إبراهيم عليه السلام: " قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ " (سورة هود: ٧٢).

فالموقـف موقـف دهشة واستغراب، فقد بشّر الملائكة إبراهيم بالولد وهو شيخ كبـير وامرأته عجوز عقيم، فلما سمعت استغربت الخبر وعبرت عن موضع الغرابة فـيه بقـولها (أَأَلِـدُ وَأَنَـاْ عَجُـوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخًا). وهي محقّة حين تبني قولها علي معهـود الحـياة في اسـتعدادات الطبـيعة البـشرية التـي يقتضي التناسل فيها خصوبة الشباب في الأم وبعولة الشباب في الزوج..

وهـذا مـن ألطـف الإشـارات في إفهـام القصد، ولو قالت (وزوجي شيخاً) لم يـتحقق لهـا ذلـك، فـإن الـشيخوخة لا تتـنافي مـع الزوجية ولا تكون مبعث إنكار واسـتغراب .. ويـؤكد هذا المعني قولها " شيخاً " بالنصب فهي لم ترد الإخبار وإلا لقالـت " بعـلي شيخ " ولكنها أرادت اظهار الحال التي عليها بعلها من الشيخوخة التـي تحول دون تحقق البعولة فيه .. وقد اعتبر " الواحدي " ذلك من لطائف النحو وقـال إنه قائم مقام قولها: أشير إلى بعلي حال كونه شيخاً ... والمقصود تعريف هذه الحال المخصوصة وهي الشيخوخة ..[٣٠].

ـ السنة ... والعام:

فقد اختلف التعبير بهما في قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام:" قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَـبْعٌ شِـدَادٌ يَـأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ " (سورة يوسف: ٤٧-٤٩).

وهـذه المخالفـة في التعبـير تلفـت النظر وتشد الانتباه، فظاهر السياق يقتضي أن يـتوافق التعبـير ويطـرد اللفظ ليوائم نسق العبارات، والخروج علي هذا النسق يدل علي أن وراءه حكمة بيان وإحكام معني:

أولاً: السنة:

ويوحـي جرسـها في اللغـة بمعـناها، وهـو معنـي يـدور حـول الحدة والقطع، والـضمور والجفـاف.. وجـاء بهـذا المعنـي في قوله تعالى: " وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ " (سورة الأعراف: ١٣٠). أي الشدة والقحط .

ثانياً: العام:

وهـو مـن العوم بمعني السباحة والانتشار، ودلالته دلالة خير ورخاء إذاً فالعام زمن مخصوص بالخير موصوف بالرخاء.

وفي ضـوء هـذا تتكشف بعض جوانب السرّ في اختلافها في لغة القرآن فقد جاء لفظ السنين في قوله: " تزرعون سبع سنين دأبا" وقوله: " ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد" . أي سبع سنين، لأن المقام مقام شدة ومعاناة وتقتير في الأوقات وتضييق في الأرزاق يـدلّ علـيه الـسياق ويـصرّح بـه المقـال، ويحمـل علـيه حسن التدبّر لنسق العـبارات: " تـزرعون .. دأبـا فـما حـصدتم فذروه .. إلا قليلاً مما تأكلون .. شداد يـأكلن مـا قدمـتم لهـن إلا قلـيلاً مما تحصنون " . وهي عبارات تصور واقع المعاناة، وتكشف عن الجدب العام والقحط الطويل.

أمـا لفـظ العـام فقـد جاء في قوله: " ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفـيه يعـصرون " . لأنـه مقـام الفـرج بعد الضيق، والرخاء بعد الشدة، والخصب العميم بعد الجدب والجفاف..

" وبهـذا يتبـين لـنا أن المخالفـة بـين لفظيهما مخالفة بيان واختلاف مقام لامخالفة ترادف واختلاف تنويع في العبارات "[٣]

ومثل هذا، اختلاف التعبير بهما في قصة نوح، في الآية الكريمة:

" وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا "(سورة العنكبوت: ١٤). وكان مقتضى التناسب البلاغي في السياق يتطلب المطابقة بينهما في أسلوب الاستثناء، فيقال (ألف سنة إلا خمسين سنة) .. وإنما خالف بينهما على هذا النحو، للدلالة على أنهما زمانان متغايران وأن أيام لبثه عليه السلام في دعوة قومه كانت أيام معاناة ومشقة وجهاد، لاقى فيها أشدّ ألوان العنت والمخاصمة مما جعله يشكو إلى الله إصرارهم على الكفر، وعنادهم لدعوة الحق ويستصرخه: " قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا " (نوح: ٥-٧).

" قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا " (سورة نوح:٢١-٢٢).

ولما اشتد عنتهم وزاد ضلالهم قال: " وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا " (سورة نوح:٢٦) . مما يدل على أن أيامه معهم كانت سنين مشقة لا أعوام راحة ورخاء، ثم جاء الطوفان فاقتلع جذور الكفر وطهر وجه الأرض وعمّ السلام والأمان والرخاء فعاش عليه السلام أيامًا هي أعوام رخاء ووئام [٣٢].

ـ أكل ... وافترس

يقول " الخطابي " في تفسيره لقوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: " وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ " سورة يوسف من آية ١٣ .

وأن الافتراس معناه في فعل السبع القتل فحسب، أصل الفرس دق العنق، والقوم إنما ادّعوا على الذئب أنه أكله أكلاً، وأنه أتى على جميع أجزائه وأعضائه، فلم يترك مفصلاً ولا عظيما، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق يشهد على صحة ما ذكروه، فادّعوا فيه الأكل، ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى، فلم يصلح على هذا أن يعبّر عنه إلا بالأكل [٣٣].

ـ البث ... والحزن

فقد جاء في قصة يوسف لفظ البث معطوفًا على الحزن، في قوله تعالى: " قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ " (سورة يوسف:٨٦). ولدقة الفرق بينهما عدّهما كثير من العلماء من المترادف الذي يختلف لفظه ويتحد معناه .

وأصل البثّ في اللغة: التفريق والانتشار [٣٤]، ومنه في القرآن الكريم:

وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثًّا " (سورة الواقعة: ٥-٦).

" يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ " (سورة القارعة:٤)

فالبثّ: الهمّ الشديد سمّي بذلك لعدم قدرة صاحبه على تحمّله حين يجتمع ويتكاثف فيضيق الصدر به ويضعف العزم عن كتمانه فيبثّه الناس، ويتخفّف إليهم منه .

أما " الحزن": فأصله في اللغة الغلظ والخشونة، ومنه قيل للأرض الغليظة الصلبة حزن [٣٥]، فالحزن: الهم الذي يسيطر على صاحبه ويستولى عليه الأيام والليالي حتى يعجز عن معالجته ونسيانه، وسمّي بذلك لغلظه وتأبيه على السلوان .. وهو معنى في الهمّ غير معنى البث، وعطفه في الآية عطف تغاير لا عطف ترادف .. والقصد من ذكرهما معا الجمع بين نوعى الهم للدالة على أن " يعقوب " عليه السلام إنما يفزع إلى الله وحده في كل أحواله ويشكو له وحده أنواع همومه: الحزن القديم الذي تسلط واشتد وازداد مع الأيام صلابة وغلظاً، لا يلين مع الزمن ولا ينقاد للنسيان، والبث الجديد الذي نما وتزايد حتى ملأ الصدر على رحابته وضاق به الصبر على سعته، فلم يجد له حيلة ولم يستطع له علاجاً إلا أن يبثه إلى الله ويستعين به عليه [٣٦]

ـ الخشية ... والخوف

يقول " الزركشي ": لا يكاد اللغوي يفرّق بينهما، ولاشك أن الخشية أعلى من الخوف، وهى أشد الخوف، فإنها مأخوذة من قولهم: شجرة خشية إذا كانت يابسة

وذلك فوات بالكلية، والخوف من قولهم: ناقة خوفاء، إذا كان بها نقص وليس بفوات .. وفُرِق بينهما أيضاً بأن الخشية تكون من عظم المخشي وإن كان الخاشي قوياً، والخوف يكون من ضعف الخائف، وإن كان المخوف أمراً يسيرًا، ويدل على ذلك أن الخاء والشين والياء في تقاليبها تدل على العظمة، قالوا: شيخ للسيد الكبير، والخيش لما عظم من الكتان، والخاء والواو والفاء في تقالبيها تدل على الضعف [٣٧]

و" لأبي هلال " رأى في الفرق بين الكلمتين يذهب فيه إلى أن الخوف: يتعلق بالمكروه وبترك المكروه، والخشية تتعلق بمنزل المكروه ولا يسمّى الخوف من نفس المكروه خشية ولهذا قال تعالى: " وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ " (الرعد: ٢١) .. وقال تعالى على لسان " هارون " عليه السلام:" إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ " (طه: ٩٤)، وذلك لأنه خشى القول المؤدى إلى الفرقة، والمؤدى إلى الشيء بمنزلة من يفعله[٣٨].

إذاً فالخوف في رأى " أبي هلال "، إنما يكون مع التوقع والترقب في موقف مجهول النتائج ظنّي الاحتمالات، وعليه تكون الخشية خاصة بالحالة التي تصاحب الضرر المتيقن والخطر المشهود، أي أن الخوف: شعور يتعلق بالضرر المنتظر، والخشية: حالة تنشأ عند وقوع الضرر المنظور .

وهذا الذي أشار إليه " أبو هلال " في معنى الخوف أشار إليه الراغب في تفسير قوله تعالى: " إِنَّمَا يَخْشَى اللهَّ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء " (سورة فاطر: ٢٨) . فقال: عبر بالخشية في جانب العلماء لتيقنهم بعظمة الله وعلمهم بجلاله، ومثله: " مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ "(سورة ق: ٣٣) أى خاف خوف المتيقن العالم[٣٩] .

وهذه الملاحظات الدقيقة في الفرق بين دلالتيهما معتبرة في الآيات التي تعرضت لذكرهما في القصص الآتية:

أ- قصة " موسى وعبوره البحر ": في قوله تعالى: " وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى " (طه: ٧٧).

ففي جانب توقع الخطر من لحاق فرعون بهم وإيقاعه بهم قال له:(لاتخاف) بشارة له بالأمان والنجاة وأنه لا يقع له مجرد الشعور بالخوف من أن يدركه فرعون ويؤذيه، وليشعره بأن أمر فرعون هيّن وخطره ضعيف ..

وفي جانب خطر الغرق قال (ولاتخشى) لأن الشعور بالخطر عند قوم يسيرون وسط الماء أمر عظيم وخطر ومتيقن منظور، فكان التعبير بقوله (ولاتخشى) تعبيراً مناسباً ليقتلع كل مظاهر الخوف من نفوسهم، ولذا حذف المخشى لتذهب النفس فيه كل مذهب، فلا يترك له مصدراً يخشاه ..

ب- وقوله تعالى في قصة " يوسف ": " وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ " (سورة يوسف:١٣)..، حيث عبر بالخوف دون الخشية ليفيد أن ذلك إنما كان منه على سبيل التوقع والشك لا على سبيل التيقن والجزم .

جـ- وقوله تعالى في قصة " موسى والعبد الصالح ":" وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا " (الكهف:٨٠).

عبّر بالخشيّة دون الخوف ليفيد أن ذلك إنما كان من العبد الصالح على أساسٍ من علمٍ ويقينٍ لأن قتل النفس لا يقع لمجرد خوف من خطر ضعيف مظنون[٠٠].

- الحيّة .. والجان ... والثعبان

فقد وصف القرآن بها عصا موسى عليه السلام في مقامات مختلفة .. وملحظ التدبير أن المشبه فيها شيء واحد والمشبه به شيء واحد كذلك، اختلفت أسماؤه اختلاف ترادف لا اختلاف تباين .. وبدهي أن هذا الاختلاف يتوافق مع الاختلاف في جهة الإلحاق المرادة في ملمح التشبيه ..

فالحية: اسم لما عظم من الأفاعي، واشتقاقه من الحياة أو من التحوّي بمعنى التجمع والتلوى، ومنه سميت المعىّ حوايا لتجمعها والتوائها .. وقد شبّهت عصا موسى بالحية لاكتساب هذه المعاني في قوله تعالى:" وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى " (طه:١٧-٢٠).

فهـذه هـي الحالـة الأولى التـي يتعرف موسى عليه السلام على مظهر المعجزة في عـصاه، وقد أراد الله أن يطلعه على هذا السرّ ليكون على خبر منه، فهي ليست عصا يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه، وإنما هي معجزة رسالة وبرهان رسول، فقد كانت في يمينـه عـصا جافـة ميتة فإذا هي تتحول بقدرة الإعجاز إلى حياة تتحرك ومخلوق يسعى ..

" وإذا تدبّرنا لفظ " حية " أوحى لنا بالمقابلة المستورة بينها وبين كلمة " عصا " وهى مقابلة تقوم برهاناً على الإعجاز حين تصور لنا مظاهر الموت في العصا مشاهد حـياة تتحرك وتسعى .. وبهذا يكون لفظ " حية " أصدق الأسماء الثلاثة تعبيراً عن معناه في مقام السياق "[41] .

أمـا لفـظ " جـان"، فقـد جاء يلائم مقامه في قوله تعالى:" وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا " (النمل:١٠ ؛ القصص:٣١).

إن الجـان اسـم لمـا دقّ مـن الأفاعـي وخف، وهو في تصاريفه يدور حول معاني الخفـة والرشـاقة المصحوبة بالعجب والخيلاء [42]، ولهذا جاء مناسباً لكلمة " تهتز " في التـشبيه ليعطـى التـصور الدقيق لحركة العصا حين تحولت إلى أفعى دقيق الجسم خفيف الحركة يتراقص في استعراض للرشاقة يأخذ بالألباب [43].

ثـم يأتـى لفظ " ثعبان " في موضعه من قوله تعالى:" فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ " (سـورة الأعراف:١٠٧ ؛ الشعراء: ٣٢). وهو لفظ يدل على تفجّر الحركة وسرعـة انسيابها وأصله من ثعب الماء إذا تفجر وانساب، وهو أيضاً يدل على معنى الـضخامة والفخامـة، ومـنه قـيل: الأثعـبان للـوجه الـضخم، وبـه سُـمّي الثعبان لضخامته .

فلفـظ " ثعـبان " بدلالـته على هذه المعاني أنسب الأسماء الثلاثة بالبيان في المقام الـذي جـاء فـيه، وهـو مقام تحدٍّ ونزال جمع فيه فرعون الأجناد، وحشد له السحرة والحـواة فـسحروا أعـين الـناس واسـترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم، وقال لموسى مـتحديا: إن كـنت جـئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين، فألقى موسى عصاه

فتحولت إلى ثعبان ضخم مهول ينساب في حركة سريعة وانقضاض خاطف فليلقف ما يأفكون، وبهذا تصدق الآية وتحقق المعجزة ويقول السحرة آمنّا بربّ العالمين .

فالموقف على هذا النحو من التأزّم والشدة لا يناسبه إلا أن تكون العصا على هيئة الثعبان ضخامة منظر، وسرعة انقضاض وقوة افتراس ليتحقّق جوّ الرعب والرهبة فتكون الغلبة ويتأكد العجز (٤٤).

وهكذا يكون كل واحد من الأسماء الثلاثة قد جاء تعبيراً دقيقا يصور حالة خاصة في مقام خاص ولو أن واحداً من هذه الأسماء الثلاثة جاء في موضع صاحبه لاختل هذا التناسب المحكم البديع .

وهكذا يتأكّد لنا من هذا البيان الواضح من لغة القصص القرآني بما لا يدع مجالاً للشك أن لغة القرآن لا تقرّ الترادف بمعناه العام، وإنما تحتفظ لكل لفظة منه بمقامها الخاص ومعناها المميز، الأمر الذي يجعل من ألفاظه مهما ترادفت وتقاربت ذوات مستقلة لاتتماثل ولاتتكرّر ولاتتبادل مواضعها في الدلالة أو السياق .

جـ – مشاكلة اللفظ للمعنى:

من الأسرار التي استدعت انتباه الباحثين ما اصطلح على تسميته بمشاكلة اللفظ للمعنى، فالمعنى إذا كان جزلاً كان اللفظ كذلك وإن كان " الزركشى " في البرهان يعكس القضية حين يقول:" ومتى كان اللفظ جزلاً كان المعنى كذلك " (٤٥)... والأمثلة التي توضح لنا هذه المشاكلة كثيرة، وسنعرض منها ما هو خاص بالقصة القرآنية:

١ – يقول الله تعالى في قصة عيسى عليه السلام:" إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ " (آل عمران: ٥٩). ولم يقل من " طين" كما أخبر به سبحانه في غير موضع:" إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ " (سورة ص: ٧١) .إنما عدل عن الطين الذي هو مجموع الماء والتراب إلى ذكر مجرد التراب لمعنى

لطيف، وذلك أنه أدنى العنصرين وأكثفهما، لمّا كان المقصود مقابلة من ادعى في المسيح الإلهية أتى بما يصغر أمر خلقه عند من ادّعى ذلك، فلهذا كان الإتيان بلفظ التراب أمس في المعنى من غيره من العناصر، ولمّا أراد سبحانه الامتنان على بنى إسرائيل أخبرهم أن يخلق لهم من الطين كهيئة الطير، تعظيماً لأمر ما يخلقه بإذنه، إذ كان المطلوب الاعتداد عليهم بخلقه ليعظموا قدر النعمة به .

ومنه قوله تعالى:" وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء " (سورة النور:٤٥). فإنه سبحانه إنما اقتصر على ذكر الماء دون بقية العناصر، لأنه أتى بصيغة الاستغراق، وليس في العناصر الأربع، ما يعم جميع المخلوقات إلا الماء، ليدخل الحيوان البحري فيها ..

٢ – قوله تعالى في قصة يوسف:" قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ " (يوسف: ٨٥).. لقد نقلت الآية مواقف غريبة، وقفها أبناء يعقوب من أبيهم وأخويهم، فقد ألقوا " يوسف " في الجب وجاءوا على قميصه بدمٍ كذب، وجاءوا أباهم عشاء يبكون، وكذبوا على أبيهم، ونالوا منه، واتّهموا أخاهم بالسرقة، وجاءوا أباهم يزفون إليه خبر اتّهامه مستشهدين بأهل القرية، فسكت الأب على ألم ومضض، وتولّى عنهم وتذكّر يوسف وتأسّف عليه، وبكى حتى فقد بصره .. وقد حملت الآية هذه الغرابة من جهات كثيرة:

أ- فـ "تاء" القسم أغرب أدوات القسم وهى لا تجئ إلا في المواقع الغريبة على عكس الواو والباء .

ب-و" كان " أكثر استعمالاً من " فتئ "، وفتئ لا تستعمل بدون " ما " وجيئها بدونها غريب أيضاً

جـ- – وقد أتت الآية بأغرب ألفاظ الهلاك، وهو " الحَرَض ".. فمواقف بنى إسرائيل الغريبة حملتها الألفاظ التي جاءت غريبة من حيث مجيء القسم بالتاء دون الواو والباء، ومجيء " فتئ " دون " كان " واستعمالها بدون " ما "، وكذلك التعبير " بالحَرَض " دون الهلاك [١٦]

والعرب يعرفون هذا الضرب من الكلام، وله نظائر في لغتهم، وكم من لفظه غريبة عندهم لا تحسن إلا في موضعها، ولا يكون حسنها على غرابتها إلا أنها تؤكد المعنى الذي سبقت له بلفظها وهيئة منطقها، فكأن في تأليف حروفها معنى حسياً، وفي تألف أصواتها معنى مثله في النفس..

٣ – ومن الألفاظ التي لم يستخدمها القرآن لفظة (الآجر) وليس فيها من خفة التركيب إلا الهمزة، وسائرها نافر متقلقل لا يصلح مع هذا المدّ في صوت ولا تركيب على قاعدة نَظْم القرآن، فلما احتاج إليها لفظها ولفظ مرادفها وهو (القرمد) وكلامها استعمله فصحاء العرب ولم يعرفوا غيرهما، ثم أخرج معناها بألطف عبارة وأرقها وأعذبها. وساقها في بيان مكشوف يفضح الصبح، وذلك في قوله تعالى: " وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ " (سورة القصص: ٣٨).. فلننظر هل نجد في سرّ الفصاحة وفي روعة الإعجاز أبرع أو أبدع من هذا ؟ لننظر ونتأمل كيف عبر عن الآجر بقوله:" فأوقد لى ياهامان على الطين " ولننظر موقع هذه القلقلة التي هى في الدال من قوله (فأوقد) وما يتلوها من رقة اللام، فإنها في أثناء التلاوة مما لا يطاق أن يعبّر عن حسنه، وكأنها تنتزع النفس انتزاعا..

وليس الإعجاز في اختراع تلك العبارة فحسب، ولكن ما ترمي إليه إعجازاً آخر، فإنها تحقر شأن فرعون، وتصف ضلاله، وتسفه رأيه، إذ طمع أن يبلغ الأسباب، أسباب السماوات فيطلع إلى إله موسى، وهو لا يجد وسيلة إلى ذلك المستحيل ولو نصب الأرض سُلماً، إلا شيئاً يصنعه هامان من الطين [٣٧] .

٤ – وما يشذ في القرآن الكريم حرف واحد عن قاعدة نظمه المعجز، حتى أننا لو تدبرنا الآيات التي لا نقرأ فيها إلا ما يسرده من الأسماء الجامدة، وهى بالطبع فطنة أن لا يكون فيها شيء من دلائل الإعجاز، فإننا نرى إعجازها أبلغ ما يكون في نظمها وجهات سردها، ومن تقديم اسم على غيره أو تأخيره عنه، لنظم حروفه

ومكانه من النطق في الجملة، أو لنكتة أخرى من نكت المعانى التي وردت فيها الآية بحيث يوجد شيئاً فيما ليس فيه شيء، ولنتأمل قوله تعالى في قصة " ضربات مصر ":" فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ " (سورة الأعراف:١٣٣).

فإنها خمسة أسماء، أخفّها في اللفظ (الطوفان والجراد والدم) وأثقلها (القمّل والضفادع) فقدّم (الطوفان) لمكان المدّين فيها، حتى يأنس اللسان بخفّتها، ثمّ (الجراد) وفيها كذلك مدّ، ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئاً بأخفها في اللسان وأبعدها في الصوت لمكان تلك الغنّة فيه، ثم جئ بلفظة (الدم) آخراً، وهى أخفّ الخمسة وأقلّها حروفاً، ليسرع اللسان فيها ويستقيم لها ذوق النظم ويتمّ بها هذا الإعجاز في التركيب " [٨] .

٥ – ولما كان الأصل في نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها وموقعها من الدلالة المعنوية، استحال أن يقع في تركيبه ما يسوغ الحكم في كلمة زائدة أو حرف مضطرب أو مايجرى مجرى الحشو والاعتراض، ومن الكلمات التي يقول النحاة أنها زائدة قوله تعالى في قصة يوسف:" فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا " (سورة يوسف:٩٦) ، فإن النحاة يقولون إنها " أن " زائدة، أى في الأعراب، فيظن أنها كذلك في النظم ويقاس عليها، مع أن في هذه الزيادة لوناً من التصوير، لو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته، فإن المراد هو تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف ومجيئه، لَبَعُد ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام، وأن ذلك كأنه كان منتظراً بقلق واضطراب تؤكدهما، وتصف الطرب لمقدمه واستقراره، غنة هذه النون في الكلمة الفاصلة، وهى " أن " في قوله: " أن جاء " [٩] .

ومنه:" مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ " (سورة الأعراف:١٢)، بدليل الآية الأخرى: " مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ " (سورة ص: ٧٥)، ليس المعنى: ما منعك من ترك السجود ؟ فإنه ترك، فلا يستقيم التوبيخ عليه .. وقيل: ليست بزائدة من وجهين:

أحدهما: أن التقدير ما دعاك إلى ألا تسجد ؟ لأن الصارف عن الشيء داعٍ إلى تركه، فيشتركان في كونهما من أسباب عدم الفعل.

الثاني: أن التقدير ما منعك من ألا تسجد .

وهذا أقرب مما قبله، لأن إبقاء المنع على أصله، وعدم زيادتها أولى لأن حذف حرف الجر مع " أن" كثير كثرة لاتصل إلى المجاز، والزيادة في درجتها .. بالإضافة إلى أن في زيادتها تأكيد الإثبات، فإن وضع " لا" نفي ما دخلت عليه، فهي معارضة للإثبات، ولا يخفى أن حصول الحكم مع المعارض أثبت مما إذا لم يعترضه المعارض ؛ أو أسقط معنى ما كان من شأنه أن يسقط [٤٠]

بهذا الذي قدمنا ونحوه مما أمسكنا عنه ولم نستقصِ في أمثلته لأنه أمر مطرد – بالإضافة إلى ما لم نُحط به خُبرا- نعرف أن القرآن على العموم – والقصص فيه على الخصوص – أعجز في اللغة بطريقة النظم وهيئة الوضع .. فكل كلمة منه ما دامت في موضعها فهي من بعض إعجازه، ومن هنا ينساق بنا الكلام إلى القول في النوع الثالث:

ثالثاً: الجمل وتركيبها:

الجملة هي مظهر الكلام، وهي الصورة النفسية للتأليف الطبيعي، إذ يُحيل بها الإنسان هذه المادة المخلوقة في الطبيعة، إلى معان تصوّرها في نفسه أو يصفها؛ تري النفس هذه المادة وتحسّها . على حين قد لا يراها المتكلم الذي أهدفها لكلامه غرضاً، ولكنه بالكلام كأنه يراها.. هذا من ناحية التأليف عند البشر، أما في القرآن عندما ننظر إلى جملته القصصية من جهة تركيبها، نجد أنه انتظم أسباب الإعجاز من الصوت في الحرف، إلى الحرف في الكلمة، إلى الكلمة في الجملة، حتى يكون الأمر مقدراً على تركيب الحواس النفسية في الإنسان تقديراً يطابق وضعها وقواها وتصرفها، وذلك إيجاد خلقي لا قِبَل للناس به ولم يتهيأ، إلا في هذه العربية عن طريقة المعجزة التي لا تكون معجزة حتى تخرق العادة، وتفوت المألوف وتعجز الطوق، وإنما امتنع أن يكون في مقدور الخلق، لأنه تفصيل للحروف على النحو

الذي يأخذه فيه تركيب الحياة من تناسب الأجزاء في الدقيق والجليل، وقيام بعضها ببعض لا يغني منها شيء عن شيء في أصل التركيب وحكمته .. وروح التركيب هذه، لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن، وبها انفرد نَظْمه وخرج مما يطيقه الناس ولولاها لم يكن بحيث هو كأنما وضع جملة واحدة ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين، إذ نراه ينظر في التركيب إلى نَظْم الكلمة وتأليفها، ثم إلى تأليف هذا النَظْم: فمن ههنا تعلّق بعضه على بعض، وخرج في معنى تلك الروح صفة واحدة، هى صفة إعجازه في جملة التركيب، وإن كان فيما وراء ذلك متعدد الوجوه التي يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحى العبارات على جملة ما حصل به من جهات الخطاب [٥١] . كالمواعظ والحكم والتعليم، وضرب الأمثال، هذا غير القصص القرآنى الذي لاتخلو قصة من قصصه إلا وضمير الجلالة للمتكلم يحرسها ويحميها من فطنة أن تكون من كلام أحد غير الله سبحانه .

" وإذا كان علماء المعانى يجعلون البلاغة درجات فإنهم مقرّون دون جدال أن صياغة العبارة القرآنية في الطرف الأعلى من البلاغة الذي هو الإعجاز عينه" [٥٢]... حقيقة أن القرآن كان علم البلاغة عند العرب، ثم صار بعدهم بلاغة هذا العلم.. إذاً لا يحق القول إن القرآن جاء بالاستعارة أو بالمجاز لأنه مجاز، أو بالكناية لأنها كناية، أو ما يطرد مع هذه الأسماء والمصطلحات إنما أريد به وضع معجز في نسق ألفاظه، وارتباط معانيه على وجوه السياستين من البيان والمنطق، فجري علي أصولها في أرقي ما تبلغه الفطرة اللغوية علي إطلاقها في هذه العربية، فهو يستعير حيث يستعير، ويتجوّز حيث يتجوّز، ويطنب ويوجز ويؤكد ويعترض ويكرّر إلى آخر ما أحصي في البلاغة ومذاهبها، لأنه لو خرج عن ذلك لخرج من أن يكون معجزاً في جهة من جهاته ولاستبان فيه ثمة نقص يمكن أن يكون في موضعه ما هو أكمل منه وأبلغ في القصد والاستيفاء، فما البلاغة كلها إلا بعض الوسائل في التنبيه إليه، فهى تعطى القدرة على النظر والفهم ولكنها لا تعطى بمقدار ذلك في العمل والصنعة، ولذلك سوف نُجمل تفصيلاً أو نشير إلى بعض الوجوه المعجزة في لغة القصة القرآنية من الناحية البلاغية، فالقرآن الكريم ليس كتاباً يتخير منه فيستجاد

بعضه، ويفصح عن بعضه، إنما هو وحى بمعانيه وألفاظه، فهو بائن بنفسه من الكلام الإنساني، ولابد أن يكون فائدة للناس كافة ليعملوا، وصادقا على الناس كافة ليستفيدوا، ومعجزاً للناس كافة ليصدّقوا [٥٣].

الإعجاز في بلاغة الجملة في القصة القرآنية:

١ – الإجمال:

وله وجهاته الكثيرة في تركيب الجملة منها:

أ – أن يعرض من ألفاظ مختلفة مشتركة وقعت في التركيب، كقوله تعالى في قصة موسى:" وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً" (سورة القصص:٢٣). بمعنى الجماعة ، وفي قوله عن إبراهيم عليه السلام: " إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً " (سورة النحل ١٢٠) بمعنى الرجل الجامع للخير المقتدى به.وبمعنى الدين في قوله تعالى:" إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ "(الزخرف: ٢٢).وبمعنى الزمان في قوله تعالى: " وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ "(يوسف: ٤٥).

ب – حذف في الكلام: كقوله تعالى في قصة قوم صالح: " وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً " (سورة الإسراء:٥٩)، أي آية مبصرة، فظلموا أنفسهم بقتلها، وليس المراد أن الناقة كانت مبصرة لا عمياء . .

جـ– من جهة عدم استعماله الآن: كقوله تعالى في قصة صاحب الجنتين: " فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ" (سورة الكهف:٤٢) اى نادما.

د– من جهة التقديم والتأخير: كقوله تعالى في قصة إبراهيم: " حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهَّ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ " (سورة الممتحنة:٤)، معناه " قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم ".. وهناك ما قدم والنية به التأخير مثل قوله تعالى في قصة: إبراهيم والملائكة: " فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا

بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ " (سورة هود: ٧٠-٧٢) . وكان لهذا التقديم وجهان:

أحدهما: يعتمد علي التفسير اللغوي وهو: ضحكت المرأة. حاضت وقد اعتمد البعض عليه في تفسير الآية. وقيل أصله: فبشرناها بإسحاق فضحكت: أي حاضت بعد الكبر عند البشري، فعادت إلى عادات النساء من الحيض والحمل والولادة [٥٤] .

والثاني: يعتمد علي التفسير النفسي: فقد روى " الأزهري " عن " الفراء" في تفسير هذه الآية: لما قال رسل الله عز وجل لعبده وخليله إبراهيم: لا تخف، ضحكت عند ذلك امرأته، وكانت قائمة عليهم، وهو قاعد، ضحكت فبشرت بعد الضحك بإسحاق، وإنما ضحكت سروراً بالأمن، لأنها خافت كما خاف إبراهيم [٥٥]

ويقول الأستاذ العقاد: هنا خوف فاطمئنان فبشرى مفاجئة على غير انتظار، فتعجب . لا تملك سارة أن تجهر به. فتقول: إن هذا لشيء عجيب ...

ويقول إن كل عوامل الضحك النفسية التي ظهرت للباحثين النفسانيين في تفسيراتهم – تعرضها هذه الآية الكريمة على نسقها المتتابع فتأتى بالضحك حيث يأتي الضحك مطرداً في مواضعه المختلفة من تحوّل الشعور: طمأنينة بعد خوف، ومعرفة بعد نكران، وبشارة بما ليس في الحسبان من الولادة وبعد سنّ اليأس وخيبة الأمل في الذرية زمناً طويلاً تعتلج فيه النفس بأشتات من دواعي الحزن والغراء والغيرة والتسليم .. ولا تغني هنا كلمة " سرّت "، أو " كلمة " استبشرت " أو " فرحت "، في مكان كلمة " ضحكت " . فإن الضحك هو الأثر الملائم لهذه الحالة التي تشابكت فأصبحت في قرارة النفس حالات متناقضات [٥٦]

٢ – تنوع أسلوب الخطاب: ويأتي على أوجه كثيرة منها:

أ – خطاب النوع: نحو " يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ " (سورة البقرة: ٤٠)، والمراد " أبناء يعقوب " من الكتابيين ولم يذكروا في القرآن إلا بهذا، دون " يابنى يعقوب ". وسرّه أن القوم لما خُوطبوا بعبادة الله، وذُكّروا بدين أسلافهم، موعظة لهم وتنبيهاً من

غفلتهم، سُمّوا بالاسم الذي فيه تذكرة بالله، فإن " إسرائيل " اسم مضاف إلى الله سبحانه في التأويل، ولهذا دعا النبي صلى الله عليه وسلم قوماً إلى الإسلام يقال لهم: " بنو عبدالله "، قال: " يا بنى عبدالله "، إن الله قد حسّن اسم أبيكم " يحرّضهم بذلك على ما يقتضيه اسمه من العبودية . ولما ذكر موهبته وتبشيره به قال: " يعقوب "، وكان أولى من إسرائيل، لأنها موهبة تعقب أخرى، وبشرى عقب بها بشرى فقال: " فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ " (سورة هود: ٧١)

وإن كان اسم يعقوب عبرانياً، لكن لفظة موافق للعربى، من العقب والتعقيب. والمعجزة هنا في مشاكلة الاسمين للمقامين .

وكذلك قد يكون للشخص اسمان، فيقتصر على أحدهما دون الآخر لمقصد . ومنه قوله تعالى على لسان عيسى: " وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ " (الصف:٦) ولم يقل " محمد "، لأنه لم يكن محمداً حتى كان أحمد، حمد ربه، فنبّأه وشرّفه، فلذلك تقدّم على محمد فذكره عيسى به . ومنها أن " مدين " هم أصحاب الأيكة، إلا أنه سبحانه حين أخبره عن مدين قال:" أَخَاهُمْ شُعَيْبًا " ((هود: ٨٤).، وحيث أخبر عن الأيكة لم يقل " أخوهم ": " كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ "(الشعراء:١٧٦)، " وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ " (الحجر:٧٨)." وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الْأَحْزَابُ " (سورة ص:١٣)، " وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ " (سورة ق:١٤)، والحكمة فيه أنه لما عرّفهم بالنسب، وهو أخوهم في ذلك النسب ذكره، ولما عرّفهم بالأيكة التي أصابتهم فيها العذاب لم يقل أخوهم، وأخرجه عنهم .

ومنه " وذا النون " (الأنبياء: ٨٧)، فأضافه إلى الحوت والمراد " يونس " وقال في سورة القلم: " وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ " (القلم:٤٨)، والإضافة " بذي " أشرف من الإضافة " بصاحب "، ولفظ " النون " أشرف من " الحوت " ولذلك وجد في حروف التهجي، كقوله: " ن وَالْقَلَمِ" (القلم:١) . وقد قيل قسم وليس في الآخر ما يشرفه بذلك [٥٧] .

ب – خطاب الاثنين بلفظ الواحد:

كقـوله تعـــالى في قصة موسى: " قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى " (سورة طه: ٤٩)، أي " وهارون " وفيه وجهان:

أحدهما: أنه أفرد موسى عليه السلام بالنداء بمعنى التخصيص والتوقف إذ كان هو صاحب عظيم الرسالة وكريم الآيات .

والـثاني: لمّـا كان هارون أفصح لساناً منه، على ما نطق به القرآن ثبت عن جواب الخـصم الألـد . ومـثله في قصة آدم: " فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى "(سورة طه: ١١٧). وفيه أيضا وجهان:

أحدهما: إنما أفرده بالشقاء من حيث كان المخاطب أولاً والمقصود في الكلام .

والثاني: لأن الله جعل الشقاء في معيشة الدنيا في حيّز الرجال، ويحتمل الاغضاء عن ذكر المرأة ولهذا قيل: من الكرم ستر الحرم ..

وقـوله: " فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (الشعراء: ١٦)، فهما اثنان ولكنهما يذهبان في مهمة واحدة برسالة واحدة . فهما رسول رب العلمين[٥٨] .

وقوله تعالى في قصة آدم: " فَتَابَ عَلَيْهِ " (البقرة: ٣٧). ولم يقل " عليهما " اكتفاء بالخبر عن أحدهما بالدلالة عليه [٥٩] .

ج – خطاب الجمع بعد الواحد

كقوله تعالى في قصة موسى: " وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ " (يونس:٨٧). فثنّى في الأول، ثـم جمـع ثـم أفـرد، لأنـه خوطب أولاً موسى وهارون، لأنهما المتبوعان، ثم سبق الخطاب عاماً لهما ولقولهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأنه واجب عليهم، ثم خصّ موسى بالبشارة تعظيماً لـه ...

د – خطاب الاعتبار:

كقوله تعالى في قصة صالح لما هلك قومه: " فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ " (الأعراف:٧٩). خاطبهم بعد هلاكهم، إما لأنهم يسمعون ذلك كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بأهل بدر وقال: " والله ما أنتم بأسمع منهم "، وإما للاعتبار كقوله: " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا" (سورة العنكبوت:٢٠) .

٣ – الكناية:

أ – إن للقرآن الكريم في قصصه المثل الأعلى والمنزلة التي تعجز عنها أساليب الأدباء، ومعلوم أن لكتاب الله تعالى غاية أخلاقية لها مكانها البارز بين الغايات السامية التي يحققها ذلك الكتاب المعجز، وإذا كان هذا شأنه فلابد من أن تتفق ألفاظه وأساليبه وصوره البيانية مع هذه الغاية، وهذا يفسّر لنا خلوه تماماً من كل ما يجرح الذوق أو يخدش الحياء، أو يتعارض مع التربية الخلقية التي يغرسها ذلك الكتاب الكريم في النفوس المؤمنة ... فلننظر إلى الأدب العالي والذوق الرفيع، وصور الكناية التي تؤدى الغرض أداءً أبلغ من التصريح، في قصة يوسف وامرأة العزيز حيث توالت الكنايات وأخذ بعضها بعناق بعض، لأن الحقائق المعبّر عنها بها مما يجب ستره وتغطيته، فأدت الكناية دورها أبلغ أداء: " وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ " (يوسف: ٢٣) . فقد كنى بالمراودة عن الفحشاء التي طلبتها هذه المرأة منه، وقد عبّر عن هذا المعنى بعبارة مهذبة أغنت عن القبيح [٦٠] .

ومن لطيف الكنايات وأحسنها قوله تعالى في القصة عن مريم " وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا " (سورة الأنبياء: ٩١). وهى كناية عن فرج القميص، أي لم يعلق ثوبها ريبة، فهي طاهرة الأثواب، وفروج القميص أربعة: الكُمّان، والأعلى، والأسفل، وليس المراد غير هذا، فقد أخطأ من توهم هنا الفرج الحقيقي، فإن القرآن أنزه معنى، وألطف إشارة، وأملح عبارة من أن يريد ما ذهب إليه وهم الجاهل، لاسيما والنفخ من روح القدس بأمر القدوس، فأضيف القدس إلى القدوس، ونُزِّهت

القانتة المطهّرة عن الظنّ الكاذب والحدس [٦١] .. إذاً فإحصان الفرج هنا رمز للطهارة، وإيماء لعفة، وإشارة إلى تكامل الأنموذج الإنساني، في أم عيسى عليهما السلام .

ب – ومن صور الكناية في القصة القرآنية " التعريض والتلويح "، وأما التعريض: فإنه الدلالة على المعنى عن طريق المفهوم، وسُمّي تعريضاً لأن المعنى باعتباره يُفهم من عرض اللفظ، أي من جانبه، ويسمى التلويح، لأن المتكلم يلوح منه للسامع ما يريده، كقوله تعالى في قصة " إبراهيم " قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ " (الأنبياء:٦٣)، لأن غرضه بقوله: "فَاسْأَلُوهُمْ" على سبيل الاستهزاء، وإقامة الحجة عليهم بما عرض لهم به، من عجز كبير الأصنام عن الفعل، مستدلاً على ذلك بعدم إجابتهم إذا سُئلوا، ولم يرد بقوله: " بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـذَا "، نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم، فدلالة هذا الكلام عجز كبير الأصنام عن الفعل بطريق الحقيقة .

ج – ومن صور الكناية في القصة القرآنية أيضاً: التوجيه، وهو ما احتمل معنيين ويؤتى به عند فطنة المخاطب، كقوله تعالى في قصة ميلاد موسى " فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ "(القصص:١٢)، فإن الضمير في (له) يحتمل أن يكون لموسى، وأن يكون لفرعون . وبهذا تخلصت أخت موسى من قولهم: (أنك عرفته)، فقالت: أردت: " ناصحون للملك " والرد على من اعترض عليه بأن هذا في لغة العرب لا في كلامها، أن الحكاية مطابقة لما قالته؛ وإن كانت بلغةٍ أخرى [٦٢]

٤ – الإيضاح بعد الإبهام: ليرى المعنى في صورتين، أو ليكون بيانه بعد التشوّف إليه: لأنه يكون ألذّ وأشرف عندها، وأقوى لحفظها وذكرها، كقوله تعالى في قصة موسى: "وَوَعَدنا موسى ثَلَثينَ ليلة وَأَتْنَهاَ بعَشْر فَتم ميقت رَبه أَرَبَعينَ لَيْلَة" سورة الأعراف من آية ١٤٢، وأعاد قوله: "أربعين " وإن كان معلوماً من" الثلاثين"و " العشر" أنها أربعون " . لنفي اللبس، لأن العشر لمّا أتت بعد الثلاثين، التي هي نص

في المواعدة دخلها الاحتمال أن تكون من غير المواعدة فأعاد ذكر " الأربعين" نفياً لهذا الاحتمال، وليعلم أن جميع العدد للمواعدة.

وإن قال قائل: إذا كان زمن المواعدة أربيعين فلِمَ كانت " ثلاثين" ثم عشراً؟

أجاب ابن عساكر [٣٠]: بأن العشر إنما فُصِل من أولئك؟ ليتحدّد قُرب انقضاء المواعدة، ويكون فيه متأهّباً مجتمع الرأي، حاضر الذهن؛ لأنه لو ذكر " الأربعين " أولاً لكانت متساوية، فإذا جعل العشر فيها إتماماً لها استشعرت النفس قرب التمام، وتجدّد بذلك عزم لم يتقدم..

ولكن المواعدة في سورة البقرة وردت أربعين ليلة ولم يفصل العشر منها: " وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً " (سورة البقرة: ٥١) .. وذلك لأنه قصد في " الأعراف " ذكر صفة المواعدة والإخبار عن كيفية وقوعها فذكر على صفتها، وفي " البقرة " إنما ذكر الامتنان على بنى إسرائيل بما أنعم به عليهم فذكر نعمه عليهم مجملة، فقال: " وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ "(البقرة: ٥٠)، " وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ " (البقرة:٤٩).

٥ – الخروج على خلاف الأصل: فالأصل في الأسماء أن تكون ظاهرة، وأصل المحدث عنه كذلك . والأصل أنه إذا ذكر ثانياً أن يذكر مضمراً للاستغناء عنه بالظاهر السابق، والخروج على الأصل في تركيب الجملة القصة القرآنية له مقاصد عظيمة منها:

أ – قصد التعظيم: كقوله تعالى في قصة صاحب الجنتين: " لَّكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا" (الكهف:٣٨) ، فأعاد ذكر " الرب " لما فيه من التعظيم والهضم للخصم . ومثله في قصة مريم: " وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ "(آل عمران:٣٧) .

ب – إزالة الإهانة والتحقير: كقوله تعالى في قصة موسى وفرعون: " وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ" (غافر: ٣٧)

ج- إزالة اللبس حيث يكون الضمير يوهم أنه غير المراد: كقوله تعالى في قصة يوسف: " ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ " (يوسف:٧٦)، إنما حسن إظهار الوعاء مع أن الأصل " فاستخرجها منه " لتقدم ذكره، لأنه لو قيل ذلك لأوهم عود الضمير على الأخ، فيصير كأنه الأخ مباشر لطلب خروج الوعاء، وليس كذلك لما في المباشرة من الأذى الذي تأباه النفوس، الأبية، فأعيد لفظ الظاهر لنفي هذا ..

وإنما لم يضمر الأخ فيقال: " ثم استخرجها من وعائه " لأمرين:

أحدهما: أن ضمير الفاعل في " استخرجها " ليوسف عليه السلام، فلو قال " من وعائه " لتوهم أنه يوسف، لأنه أقرب مذكور فأُظهر لذلك .

والثاني: أن الأخ مذكور مضاف إليه، ولم يذكر فيما تقدم مقصوداً، بالنسبة الإخبارية، فلما أحتج إلى إعادة ما، وأضيف إليه أظهره أيضاً

د – قصد العموم: كقوله تعالى في قصة " موسى والعبد الصالح: " حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا" (الكهف:٧٧) ، ولم يقل " استطعمهم " للإشعار بتأكيد العموم، وأنهما لم يتركا أحداً من أهلها إلا استطعماه وأبى، ومع ذلك قابلهم بأحسن الجزاء، وفيه التنبيه على محاسن الأخلاق، ودفع السيئة بالحسنة .

وقوله تعالى في قصة يوسف: " وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ " (سورة يوسف: ٥٣)[٦٥]، فإنه لو قيل: إنها لأمّارة " لاقتضى تخصيص ذلك، فأتى بالظاهر ليدل على أن المراد التعميم، مع إنه برئ من ذلك بقوله بعده: " إلا مارحم ربي "، وقوله: " إن ربي غفور رحيم "، ولم يقل " إنه " إما للتعظيم وإما للاستلذاذ.

٥ – الاستثناء والاستدراك: ويبدو واضحاً في تركيب الجملة كقوله تعالى في قصة آدم: " فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ" (الحجر:٣٠-٣١)، فإن فيه معنى زائداً على الاستثناء، هو تعظيم أمر الكبيرة التي أتى بها إبليس من كونه خرق إجماع الملائكة، وفارق جميع الملأ الأعلى بخروجه مما دخلوا فيه من السجود لآدم ..

ومنه قوله تعالى في قصة نوح: " فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا "(العنكبوت:١٤) فإن في الإخبار عن المدة بهذه الصيغة تهويلاً على السامع، ليشهد عذر نوح عليه السلام في الدعاء على قومه . وحكمة الإخبار عن المدة بهذه الصيغة تعظيم للمدة، ليكون أول ما يباشر السمع ذكر " الألف " واختصار اللفظ، فإن لفظ القرآن أخصر من تسعمائة وخمسين عاماً ولأن لفظ القرآن يفيد حصر العدد المذكور ولا يحتمل الزيادة عليه ولا النقص ..

٦ – الاحتراس: وهو أن يكون الكلام محتملاً لشيء بعيد فيؤتى بما يدفع ذلك الاحتمال مثل قوله تعالى على لسان النملة في قصة سليمان: " لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ " (النمل:١٨) . فقوله: " وهم لا يشعرون" احتراس بيّن أن من عدل سليمان وفضل جنوده أنهم لا يحطمون نملة فما فوقها إلا بأن يشعرون بها . وقد قيل: إنما كان تبسّم سليمان سروراً بهذه الكلمة منها، ولذلك أكد التبسّم بالضحك، لأنهم يقولون: تبسّم كتبسّم الغضبان، لينبّه على أن تبسّمه تبسّم سرور ..

وكذا قوله تعالى في قصة الطوفان: " وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " (سورة هود: ٤٤) فإن سبحانه ما أخبر بهلاك من هلك بالطوفان، عقبهم بالدعاء عليهم، ووصفهم بالظلم، ليعلم أن جميعهم كان مستحقاً للعذاب، احتراس من ضعف يوهم أن الهلاك بعمومه ربما شمل من لا يستحق العذاب، فلما دعا علي الهالكين، ووصفهم بالظلم علي استحقاقهم لما نزل بهم وحل بساحتهم، مع قوله أولاً: " وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ "(سورة هود:٣٧).

وأعجب احتراس وقع في القصص القرآني قوله تعالى مخاطباً لنبيه عليه الصلاة والسلام: " وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ " (القصص: ٤٤).....

وقال عن موسى: " وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ "(سورة مريم:٥٢)، فلما نفي سبحانه عن رسوله أن يكون بالمكان الذي قضي لموسى فيه الأمر عرّف المكان

بالغربي، ولم يقل في هذا الموضع " الأيمن " كما قال " وندينه من جانب الطور الأيمن: أدباً مع النبي صلي الله عليه وسلم أن ينفي عنه كونه بالجاني الأيمن، أو يسلب عنه لفظاً مشتقاً من اليمن، أو مشاركاً لمادته، ولما أخبر عن موسي عليه السلام ذكر الجانب الأيمن تشريفاً لموسي، فراعي في المقامين حسن الأدب معهما تعليماً للأمة، وهو أصل عظيم في الأدب في الخطاب [٦٥] .

وعلى هذا نستطيع – بعد الذي قدمنا – أن نكتفي بهذه الإشارة من تلك الجزئيات المعدودة، من نواحي الإعجاز في باب القصص القرآني من ناحية البلاغة .. ذلك الإعجاز الذي منح اللفظ العربي امتداداً في المدلول، فأحدث ثورة لغوية لم تعرفها لغات البشر، ويمكن أن نلخص نواحي الإعجاز في نقاط ثلاث:

أولها: أنه قد حدث بتأثير كتاب علي لغة، وهو أمر لم يحدث في تاريخ الإنسان منذ عرف اللغة.

وثانيها: أن أساس التحدّي في الإعجاز هو الكلمة بكل بنياتها، فقد نجد في القرآن كلمة علي حرف واحد، أفادت من الاستعمال القرآني تعدداً في المعني، وسعة في الاستعمال، وقد تكون علي حرفين وثلاثة، وأربعة، وخمسة، وهذا هو المقياس الكمّي الذي وقفت عنده بنية الكلمة العربية المجردة.

وثالثها: قابلية اللفظ القرآني لتحمّل المزيد من الدلالة، وهو بذلك يمنح العربية مرونة في الأداء ومواكبة لتطور العلم، وقدرة علي استيعاب حقائقه في كل جيل، ولا شك أن ذلك كله يضفي علي بيان القصص تأثير تركيبي عميق ... ندرك منه فصاحة الأسلوب وبلاغة العبارة وسمو المعني والمفهوم، وثراء الفكر والمضمون.

" ولا ننسي أن نذكر فوق ذلك ما قالته الأعرابية – حين أعجب بعض الناس ببعض شعرها –: (ما ترك لنا القرآن من بيان وهو يقول: " وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ "(سورة القصص:٧) فقد جمع في آية واحدة بين أمرين ..

ونهيين وبشارتين)، هذا إلى أنها لم تعن بأن تشير في الآية إلى مصطلح القوم في لطف التصوير، وما تقتضيه الدقة في التعبير بالشرط وفي إيثار بعض أدواته علي بعض . وما تقتضيه الدقة في اختيار الفاصلة التي تساير أجراس السورة، أو أنغامها الموسيقية الموتورة " [٦٦].

ثانياً: الخصائص الأسلوبية:

ونقصد بالأسلوب تلك الطريقة التي يتم بها التركيب الأدبي للعناصر القصصية،ومما لاشك فيه أن القصة القرآنية تُعدّ أول قصة ملتزمة عرفها الأدب العربي، فإذا تأملنا في الأسلوب الذي قدمت به، وماله من تأثير نفسي وفني، اتّضح وجه تسميتها " بالقصة " لا استناداً إلى مدلولها اللغوي فقط، باعتبار أن اصل الاشتقاق للفظ (قصة) يلتقي في المعني مع المدلول الذي انبنى عليه أصل التسمية القرآنية، وهو الإعلام بالنبأ " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ" (الكهف:١٣) ، أو تتبع الأثر وتقصّيه: " وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ" (سورة القصص:١١)، بل واعتمادها علي ما في عرضها من طرق فنية .

ولا ننسى أن أسلوب القصص القرآني هو أسلوب التخاطب ومن هنا وضحت في قصصه أساليب الحدث والمشافهة خاصة في مبدأ القصة [٦٧].

وهناك خصائص أسلوبية عامة تحقق الغرض الديني للقصة القرآنية، عن طريق جمالها الفني، إذ أن هذا الجمال الفني يجعل ورودها إلى النفس أيسر، ووقعها في الوجدان أعمق، وهذه الخصائص تمثلها بعض الظواهر الفنية التي لها حساب معلوم في الدراسة الفنية للقصة الحرة في عالم الفنون [٦٨]، منها:

(أ) تنوّع طريقة العرض:" إن البيان القرآني يحدّد الغرض من القصة ويسلك له الطريق الذي يوصل إليه، متوسلاً في طريقه إلى غرضه بالوسائل البيانية المناسبة أتمّ المناسبة. ومن ثم تنوّعت الطرائق تبعاً لتنوّع الأغراض، واختلفت الوسائل البيانية تبعاً لتنوّع الطرائق " [٦٩].

١ـ التقديم والتمهيد لعرض القصة:

وخير مثال لذلك هي " قصة الخلق "، أو " النشأة الأولى "، فقد ورد في سورة الأعراف تقديم قوي لقصة خلق آدم، تبدأ به السورة: يقول تعالي: " المص كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ"(سورة الأعراف: ١-٢).

إن خطاب الرسول – صلي الله عليه وسلم – هو خطاب لقومه الذين يجاهدهم بهذا القرآن .. كل ما يجيء في السورة بعد ذلك من قصص، ومن وصف لرحلة البشرية الطويلة، وعودتها من الرحلة المرسومة، وكل ما يعرض من مشاهد في صفحة الكون وفي يوم القيامة، إنما هو خطاب غير مباشر – وأحياناً مباشر – للنبي صلي الله عليه وسلم وقومه للإنذار والتذكير، كما يشير هذا المطلع القصير ... ولأن الأمر كذلك من الثقل ومن الغرابة، ومن النفرة ومن المقاومة لهذا التغيير الكامل الشامل الذي تستهدفه هذه العقيدة في حياة الناس وتصوراتهم، فإن السياق يباكر القوم بالتهديد القاصم، ويذكّرهم بمصائر المكذبين، ويعرض عليهم مصارع الغابرين ... جملة قبل أن يأخذ في القصص المفصل عنهم في مواضعه من السياق: " وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ "(الأعراف٤: ٩) .

وبعد هذه المقدمة تبدأ القصة، تبدأ بالحديث عن التمكين للجنس البشري في الأرض، وذلك بما أودع الله هذا الكون من خصائص وموافقات تسمح بحياة هذا الجنس وتمكينه في الأرض، وبما أودع الله هذا الجنس من خصائص وموافقات متوافقة مع الكون، ومن قدرة علي التصرف إلى نواميسه واستخدامها والانتفاع

بطاقاته ومقدراته وأقواته،" وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ "(الأعراف:١٠).

وليس هذا إلا التمهيد لعرض قصة النشأة الأولي، وتصوير نقطة الانطلاق للبشرية في رحلتها المرسومة، والسياق يركز في هذه السورة علي هذه النقطة، ويعرض قصة النشأة، ويتخذها كذلك نقطة تعقيب للإنذار والتذكير، المستمدين مما في مشاهدها وأحداثها من عظات موحية، ومؤثرات عميقة:"وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ " (الأعراف:١١) .

وبهذا المشهد في نقطة الانطلاق يتحدّد مصير الرحلة كلها، ومصائر المرتحلين جميعاً.. وتلوح طلائع المعركة الكبرى التي لا تهدأ لحظة طوال الرحلة، بين هذا العدد الجاهر بالعداوة، وبني آدم جميعاً . كما تلوح نقط الضعف في الكائن الإنساني جملة، ومنافذ الشيطان إليه منها ..

ومن ثم يتخذ السياق من المشهد مناسبة للتعقيب الطويل، بالإنذار والتحذير: " يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ " (سورة الأعراف ٢٦-٢٧) .

٢- وقد يمهد للقصة بمقدمة توحي بخاتمتها علي نحو ما نري في قصة " يوسف " فأحداثها تبدأ عقب تقديم رؤيا يوسف التي قصّها علي أبيه وتنبؤ أبيه بما ينتظره في المستقبل من شأن عظيم " إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ "(يوسف:٤-٦).

ثم تبدأ مشاهد القصة وأحداثها، حتى إذا كانت خاتمتها عرفنا أنها كانت تصويراً دقيقاً لانتقال الرؤيا إلى واقع متدرج مع الأيام [٧٠]: " وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ "(يوسف:١٠٠).

٣- وقد يمهّد للقصة بذكر ملخص لها يشوّق إليها، وينبّه إلى ما تنطوي عليه من مقاصد القصة القرآنية، ويعالج ما قد يثار حول أحداثها، من تشكيك أو ما قد يثار حول أفكارها من آراء، ثم يعرض التفصيلات بعد ذلك، كما نري في قصة أصحاب الكهف، فقد مهّد لأحداث القصة بقوله تعالى: " أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا"(الكهف:٩-١٢) .

ذلك ملخص للقصة، ثم تتبعه تشاورهم قبل دخولهم الكهف. وحالتهم بعد دخوله، ونومهم، ويقظتهم، وإرسالهم واحداً منهم ليشتري لهم طعاماً، وكشفه في المدينة، وعودته، وموتهم، وبناء المعبد عليهم واختلاف القوم في أمرهم .. إلخ . فكأن هذا التلخيص كان مقدمة مشوّقة للتفصيلات [٧١].

٤- ومرة تذكر عاقبة القصة ومغزاها، ثم تبدأ القصة بعد ذلك من أولها وتسير بتفصيل خطواتها. وذلك كقصة موسي في سورة القصص . وهي تبدأ هكذا: " تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ

وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ "(القصص: ٢-٦).

ثم يمضي في تفصيلات قصة موسي: مولده ونشأته ورضاعه وكبره وقتله المصري وخروجه .. فكأن هذه المقدمة، التي تكشف الغاية من القصة كانت تمهيداً مشوقاً لمعرفة الطريقة التي تتحقق بها الغاية المرسومة المعلومة[٣٢].

٥- وقد يذكر القصة بدون مقدمات ولا تمهيد، مكتفياً بإيماء إلى محور القصة، علي نحو ما جاء في قصة سليمان مع ملكة سبأ، فالقصة تدور في محور العلم والإيمان، ومن ثم بدأت بعد قوله تعالى: " وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ" (سورة النمل:١٥) . وكما نري في الحلقة التي تعرضها سورة الأنبياء من قصة إبراهيم، فالقصة تدور في محور الجدل العقلي القائم علي التعقل والإتزان، ومن ثم بدأت بعد قوله: " وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ " (سورة الانبياء:٥١) . ثم تلا ذلك قوله تعالى: " إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ"(سورة الأنبياء:٥٢).

٦- وقد يقدم أحداث القصة وفق ترتيبها الواقعي، فيصبح متلقي القصة مشاركاً لأصحابها، في الانتقال مع أحداثها ومواقفها، علي نحو ما نري في قصة مريم التي تقدمها سورة مريم، وما نري في قصة إبراهيم التي تعرضها سورة الأنبياء، فنحن مع قصة مريم ننتقل معها من حدث إلى حدث ونمر معها بالضيق جاهلين نهايته حتى نصل معها في النهاية إلى سماع صوت طفلها عيسي يبرئ ساحته ويعرّف بنفسه، ونحن مع قصة إبراهيم ننتقل معه في تحدّيه لقومه وسخريته من معبوداتهم، ونتدرج معه دون أن ينكشف لنا شيء ينمُّ عما تنتهي به القصة، حتى نراه في النهاية كما رأي نفسه محفوظاً من النار التي ألقي فيها لتحريقه[٣٣].

٧- وقد يقدّم أحداث القصة وفق ترتيب آخر ليجعل لنا بالكشف عن مفاجآت القصة، إيماء إلى أن من وقائع الحياة ما يمكن للعاقل المؤمن البصير إدراكه قبل أن يقع ليعمل علي تدارك نفسه . كما نري في قصة أصحاب الجنة التي قدمتها سورة

القلم فبعد بدء أحداثها مباشرة قدّم حدثاً يعرّفنا بما آل إليه أمر الجنة دون أن يؤثّر ذلك علي مسار القصة، أو يصيبها بأدني قلق أو اضطراب: " إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ "(سورة القلم: ١٧-٣٢).

٨- البيان القرآني في بعض مشاهد قصصه يعتمد علي إحضار الأحداث دون تدخل بالرواية وما تستلزمه من حكاية علي ألسنة الأشخاص . وكل ما يصنعه أنه ينبّه إلى عنوان المشهد أو موضوعه بما يتناسب مع السياق البياني العام، ثم يختفي لتصدر الأحداث والأقوال من أصحابها مباشرة علي غرار ما نعرفه حديثاً باسم (التمثيلية)، فيصبح متلقي المشهد كأنه حاضر وقائعه بنفسه دون واسطة. علي نحو ما جاء في قصة إبراهيم عليه السلام إذ يقدم القرآن مشهد بناء الكعبة فنري إبراهيم وإسماعيل أمامنا بأشخاصهما يبنيان ونسمعهما بألسنتهما يدعوان، حتى كأنهما معنا في عصرنا هذا أو كأننا انتقلنا إليهما في الماضي نعايشهما: " وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ "(البقرة: ١٢٧-١٢٩).

فالبيان هنا لم يتدخل إلا برفع الستار عن المشهد، وذلك قوله تعالى: " إذ يرفع " كلمة (إذ) هنا تمثل المفتاح الذي ينقلنا إلى الحدث الواقع أو ينقل الحدث ذاته إلينا فنشارك أشخاصه الزمان والمكان والحياة[٧١].

٩- والقرآن في أكثر قصصه يعتمد علي أسلوب الأقصوصة في العرض، فيسيطر بـذلك عـلي الموقـف، لينتقي من الأحداث التي وقعت ما يحقق الهدف، وينسقها في إطـار فنـي لا يخـرج عن الحقيقة، ولا ينبو علي الواقع، فالبيان القرآني – هنا – يحرّك الأشـخاص الحـركة نفـسها التـي تحـرّكوها في الواقـع الماضي، غير أنه ينتقل بهم في قفـزات، مـتجاوزاً مـن ذلـك ما يراه لا يفيد في الغرض، فيجمع بذلك بين الصدق الواقعي والصدق الفني، إذ لا يتوسل إلى إبراز موضوعه بوسائل مخترعة ينسب فيها إلى أشخاصـه ما هم منه براء، ولا يترك ركام الأحداث الجانبية يطغي علي الموضوع فيـضلل المتلقـي، وينأى به بعيداً عن الموقف الحقيقي، ولذا يغلب علي قصصه نسبة الأقـوال إلى أصحابها بواسطة (قال)، وقصّ ما حدث بها يناسب من وسائل الرواية والـسرد القصـصي، عـلي نحـو مـا جـاء في قصة أصحاب الكهف، وقصة سليمان، وقصة يوسف ..

بـيد أن تنمـية الأحـداث في بعـض قصـصه تعتمد بالدرجة الأولى على الوصـف والتـصوير كـما توضـحه قصة أصحاب الكهف، وفي بعضها تعتمد بالدرجة الأولي علي الحوار كما في قصة " موسي والعبد الصالح " التي قدمتها سورة الكهف .. وقد يجمـع بـين الوسـيلتين بدرجة متقاربة في تنمية الأحداث كما في قصة سليمان وملكة سـبأ . ونبحث عن السرّ في ذلك فنجده يرجع إلى موضوع القصة، وإلى الغاية منها، فالقـصة التـي يقـصّد بهـا الـوعظ وإرسـاء قـيم خلقـية يهتم فيها بالقص الواصف المستوعب، والقـصة التي يقصّد بها إقرار عقيدة أو توضيح فكرة يهتم فيها بالقص الحـواري، فتبث في ثنايا الحوار الخفيف ما يصعب علي العقل البشري استساغته من أفكـار وعقائـد . فـإذا اجـتمع في القصة المقصدان نجدها تقوم علي السرد الوصفي والحواري بدرجة تتقارب تقارب المقصدين فيها، وتتفاوت تفاوتها (٧٥).

ب- وثانـية هـذه الخصائص الفنية في عرض القصة، تلك الفجوات بين المشهد والمـشهد، التـي يـتركها تقـسيم المـشاهد " وقـصّ " المناظـر، بحـيث تترك بين كل مـشهدين أو حلقتـين فجـوة يملـؤها الخـيال، ويـستمتع بإقامة القنطرة بين المشهد والمشهد اللاحق..

وهـذه طريقة متّبعة في جميع القصص القرآني علي وجه التقريب، ولنضرب عليها

مـثلاً مـن قصة يوسف، فالقصة قد قسّمت ثمانية وعشرين مشهداً، فلنعرض بعض مشاهدها:

لقد قدم إخوة يوسف وهو " علي خزائن الأرض "، في سنوات الجدب، يطلبون القمـح، فطلـب إلـيهم أن يحضروا أخاهم الآخر .. شقيقه .. فأحضروه – علي كُرهٍ مـن أبـيه – ثـم وضع صواع الملك في رحله وأخذ به رهينة، باسم أنه سارق، ليبقيه يوسـف عـنده .. ثم هاهم أولاء إخوته ينتحون جانباً ليتشاوروا في أمرهم، وقد أبي علـيهم يوسـف أن يأخـذ أحـدهم مكانـه: " فَلَـمَّا اسْتَيْأَسُـواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِـيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُـواْ أَنَّ أَبَـاكُمْ قَـدْ أَخَـذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُـفَ فَلَـنْ أَبْـرَحَ الأَرْضَ حَتَّـىَ يَـأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُـمَ اللهُ لِي وَهُـوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ارْجِعُـواْ إِلَى أَبِـيكُمْ فَقُولُـواْ يَـا أَبَانَـا إِنَّ ابْـنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ وَاسْـأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيـهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ " (يوسف: ٨٠-٨٢)..

وهـنا يـسدل الستار، لنلتقي بهم في مشهد آخر لا في مصر ولا في الطريق، ولكن أمـام أبـيهم، وقد قالوا له ما وصّاهم به أخوهم دون أن نسمعهم يقولونه. إنما يرفع الـستار مـرة أخـري لنجد أباهم يخاطبهم:" قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِـيلٌ عَـسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِـي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ " (سورة يوسف: ٨٣) ويُسدل الستار..

وهنا نري مشهداً آخر بين يعقوب وبنيه، ونراه قد ابيضّت عيناه من الحزن، وهو دائـم الحـسرة علي يوسف، وأبناؤه يستنكرون عليه هذا كله: " وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَـفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّـى تَكُـونَ حَرَضًـا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ " (يوسف: ٨٤-٨٧) .

وهنا يسدل الستار، ويطووون الطريق لا نعلم عنهم فيه شيئاً، إنما يرفع الستار فنجدهم في مصر أمام يوسف: " فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ "(يوسف:٨٨).

جـ وثالثة الخصائص الفنية في عرض القصة – التصوير الفني:

إن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن . فهو يعبّر بالصورة المحسّة المتخيّلة عن المعني الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور . وعن الأنموذج الإنساني والطبيعة البشرية . ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة . فإذا المعني الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا الأنموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسّمة مرئية . فأما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل . فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة، وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأول، الذي وقعت فيه أو ستقع، حيث تتوالى المناظر، وتتجدد الحركات، وينسى المستمع أن هذا كلام يُتلى، ومثل يُضرب، ويتخيّل أنه منظر يُعرض، وحادث يقع . فهذه شخوص تروح علي المسرح وتغدو، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات، المنبعثة من الموقف، المتساوقة مع الحوادث، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة، فتنمّ عن الأحاسيس المضمرة . إنها الحياة وليست حكاية الحياة..

فإذا ما ذكرنا أن الأداة التي تصوّر المعني الذهني والحالة النفسية وتشخص الأنموذج الإنساني أو الحادث المروي، إنما هي ألفاظ جامدة، لا ألوان تصور، ولا شخوص تعبّر، أدركنا بعض أسرار الإعجاز في تعبير القرآن [٦٦].

وبعد لقد استطردنا في تتبع معظم خصائص القصة القرآنية. ولكن مما لا شك فيه أن قوة العرض والإحياء هي السمة البارزة في مشاهد القصة جميعاً . وأن هذا اللون هو الذي يطبعها، ويغلب فيها علي الألوان الأخرى.

هوامش ومراجع الفصل الثاني

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الثاني، ص ٧٢١.

(٢) د. محمد عناني: خرافة الكمال: جريدة الأهرم ٢٧/ ٥/ ١٩٨٨.

(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، الملجد الثاني، ص ٧٢١.

(٤) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن: ص ٨٦.

(٥) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم – ص ١٤. مطبعة السعادة. القاهرة،ط١،سنة١٩٧٧.

(٦) مصطفي صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ٢٠٩، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ.

(٧) المرجع السابق، ص ٢١٠-٢١١.

(٨) كل الذين يدركون أسرار الموسيقا وفلسفتها، لا يرون في الفن العربي بجملته شيئاً يعدل هذا التناسب الذي هو طبيعي في كلمات القرآن وأصوات حروفها، وما منهم من يستطيع أن يغتمز في ذلك حرفاً واحداً ؛ ويعلو القرآن علي الموسيقا أنه مع هذه الخاصة العجيبة ليس من الموسيقا

انظر: المرجع السابق، ص ٢١٤.

(٩) وقال بعض العلماء: كثر في القرآن ختم الفواصل بحروف المدّ واللين وإلحاق النون، وحكمة وجودها التمكّن من التطريب بذلك، كما قال سيبويه إنهم (أي العرب) إذا ترنّموا يلحقون الألف والياء والنون، لأنهم أرادوا مدّ الصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترنّموا وجاء في القرآن علي أسهل موقف وأعذب مقطع، وهذا قولٌ ناقص.

انظر: مصطفي صادق الرافعي: إعجاز القرآن: ص ٢١٧.

(١٠) المرجع السابق: ص ٢١٦- ٢١٧ بتصرف.

(١١) راجع سورة مريم: الآيات من ١ إلى ١٥.

(١٢) راجع سورة مريم: الآيات من ١٦ إلى ٣٧.

(١٣) راجع سورة مريم: الآيات من ٣٤ إلى ٤٠.

(١٤) راجع سورة مريم: الآيات من ٤١ إلى ٧٤.

(١٥) راجع سورة مريم: الآيات من ٧٥ إلى ٨٧.
(١٦) راجع سورة مريم الآيات من ٨٨ إلى ٩٨.
(١٧) سيد قطب: في ظلال القرآن . المجلد الرابع، ص ٢٣٠٠ – ٢٣٠١.
(١٨) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤٩٢.
(١٩) مصطفي صادق الرافعي: إعجاز القرآن: ص ٢١٧.
(٢٠) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن: ص ٨٩ – ٩٠.
(٢١) مصطفي صادق الرافعي: إعجاز القرآن: ص ٢٢٠ – ٢٢٤ بتصرف.
(٢٢) د. السيد تقي الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن ص١٥٠.
(٢٣) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤٩٤ – ١٩٥.
(٢٤) د. السيد تقي الدين: من الوجهة الادبية في دراسة القرآن، ص ١٥٠.
(٢٥) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤٩٣.
(٢٦) الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن ص ٧٨، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، جـ٤، دار التراث، القاهرة بدون تاريخ.
(٢٧) د. حفني محمد شرف: إعجاز القرآن البياني، ص ٢٢٢.
(٢٨) د. علي اليمني دردير: أسرار الترادف في القرآن الكريم، ص٣٢–٣٣، دار ابن حنظل . القاهرة، ١٩٨٥
(٢٩) المرجع السابق، ص ٣٤.
(٣٠) المرجع السابق، ص ١٣١ - ١٣٢.
(٣١) المرجع السابق، ص ١١٧-١١٩.
(٣٢) المرجع السابق ، ص ١١٩-١٢٠.
(٣٣) أبو سليمان محمد بن الخطابي: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص ٣٦، تحقيق الأستاذ محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام، القاهرة، بدون تاريخ .
(٣٤) ابن منظور: لسان العرب، جـ١، ص ٢٠٨.
(٣٥) المرجع السابق، جـ ٢، ص ٨٦٢.
(٣٦) د. علي اليمني دردير: أسرار الترادف، ص ٦٧-٦٨.
(٣٧) الامام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، جـ ٤، ص٧٨.
(٣٨) أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، ص ٢٠٠.
(٣٩) سورة ق من آية ٣٣.
(٤٠) المرجع السابق، أسرار الترادف، ص ٥٨-٥٩.
(٤١) د علي اليمني دردير: أسرار الترادف، ص ٩٨-٩٩.
(٤٢) ابن منظور: لسان العرب، ص ٧٠٤، حيث يشير إلى معني أن العصا صارت تتحرك كما

يتحرك الجان حركة خفيفة، ويقول أبو العباس: شبهها في عظمها بالثعبان وفي خفتها بالجان.

(٤٣) د. علي اليمني دردير: أسرار الترادف، ص ١٠٠

(٤٤)المرجع السابق، ص ١٠١.

(٤٥) الامام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان، جـ ٣، ص ٣٧٨.

(٤٦) المرجع السابق، جـ ٣، ص ٣٧٨.

(٤٧) في التعبير كلمة أخري جليلة: وتلك أن فرعون يريد أن يبني صرحاً يبلغ به السماء فعبر بالإيقاد علي الطين تهكماً علي فرعون، لأن البناء في مثل هذا لا يزال يرتفع بلا نهاية وإعداد الآجر يجب أن يكون كذلك مستمراً باستمرار الإيقاد علي الطين، ثم تشعر العبارة أن النتيجة لا شيء، فكأنه لم يخرج لابناء ولا مبنياً به، وما هو إلا البدء والاستمرار في البدء. انظر: مصطفي صادق الرافعي: إعجاز القرآن، ص ٢٣٤.

(٤٨) مصطفي صادق الرافعي: إعجاز القرآن، ص ٢٣٥.

(٤٩) المرجع السابق، ص ٢٣١.

(٥٠) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، جـ٣، ص ٧٩-٨٠.

(٥١) د. محمد أحمد الغمراوى: الإسلام في عصر العلم، ص ٢٣٤ .

(٥٢) د. السيد تقي الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن، ص ١٥١ .

(٥٣)مصطفي صادق الرافعى: إعجاز القرآن، ص ٢٥٨، ٢٧٢ بتصرف .

(٥٤) الإمام الزركشي: البرهان في علوم القرآن . جـ٣، ص ٢٨٠.

(٥٥) ابن منظور: لسان العرب، جـ٤ – ص ٢٥٥٨.

(٥٦)عباس محمود العقاد: جحا اضاحك المضحك، ص ٧١، دار نهضة مصر، القاهرة،بدون تاريخ .

(٥٧)الإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشى: البرهان في علوم القرآن، ج ١ ص ١٦٠ -ـــ ١٦٢ .

(٥٨)سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الخامس، ص ٢٥٩٠ .

(٥٩) الزركشى: البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٢٠٩ - ٢١١ – ٢٤٠ – ٢٤١ .

(٦٠)الزركشى: البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٣٠٤ .

(٦١)الزركشى: البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٣٠٥ .

(٦٢) ونظيره جواب ابن الجوزي لمن قال له: من كان أفضل عند النبى صلى الله عليه وسلم ؟ أبو بكر أم على ؟ فقال: من كانت ابنته تحبه .. والإشكال فى ضمير: " ابنته " وضمير " تحبه " فإن فاطمة الزهراء ابنة الرسول كانت زوج على ، وعائشة بنت الصديق كانت زوج الرسول . البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٣١٤- ٣١٥ .

(٦٣) هو محمد بن علي بن الخضر الغساني المعروف بابن عساكر، تلميذ أبي القاسم السهيلي

صاحب كتاب التعريف والاعلام فيما أبهم من الأسماء والأعلام وكتاب ابن عساكر ذيّل عليه، جمع بينهما شيخ الإسلام بدر الدين بن جماعة في كتاب واحد سماه " التبيان".
انظر: المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤٧٨- ٤٧٩.

(٦٤)وفى حاشية إحدى النسخ: " هذا مقول امرأة العزيز ، ويوسف عند هذه المقالة في السجن ، بدليل قوله: " ائتونى به " وأيضاً قول للرسول: " ارجع إلى ربك " ولم يخرج معه ، وبدليل قوله صلى الله عليه وسلم: لو كنت من يوسف لأجبت الداعى " .

(٦٥) الإمام الزركشي: البرهان في علوم القرآن، جـ ص ٦٥- ٦٦.

(٦٦) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ١٥٨.

(٦٧) د. السيد تقي الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم، ص ١٩٢.

(٦٨) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٤٨.

(٦٩) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١١٦.

(٧٠) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٢٠.

(٧١) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٤٩.

(٧٢) المرجع السابق.ص ١٤٩

(٧٣) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٢٠.

(٧٤) المرجع السابق، ص ١١٦.

(٧٥) المرجع السابق، ص١١٧-١١٨.

(٧٦) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ٣٤.